شعرية الأنساق الثقافية في الرواية الجزائرية المعاصرة،
أربعون عاما في انتظار ايزابيل، لسعيد خطيبي أنموذجا.

أ.د. فتيحة شفيري، جامعة امحمد بوقرة، بومرداس- الجزائر.

تمهيد:

ماتزال الرواية في الوطن العربي عامة وفي الجزائر خاصة تكتسح الساحة الإبداعية بقوة، فتعددت أقلامها تلك التي تخطت حدود بلدانها، مؤكدة أن الفضاء الأدبي في حركية مستمرة، ومن هذه الأقلام التي أسهمت في تأسيس هذه الحركية وتفعيلها، محققة بذلك تأثيرا متواصلا في جمهور المتلقين **الروائي الجزائري سعيد خطيبي وروايته«أربعون عاما في انتظار ايزابيل»**التي نال بها جائزة كتارا للرواية العربية **2016**.

كان الجديد الذي طرحه سعيد خطيبي عاملا مساعدا على تحقيق تأثير واسع في المتلقي العربي والجزائري على حد سواء، المجسد في**رفض رؤية نمطية اجتماعية**، مضمونها أن كل غربي هو ذلك المستعمِر الذي اغتصب أراض بالقوة ناهبا خيراتها الكثيرة، وأن الأنا الشرقي هو دوما ذلك المستعمَر المضطَهد الذي دافع عن أراضيه المغتصبة تلك، فقامت دعوة الروائي ليُجبر المتلقي العربيعلى قراءة ماضيه متلمسا الجانب الآخر لهذا الغربي،إنه**التماهي الإنساني** الذي حققه مع الشرقي واقعيا فترة الاستعمار وحتى مابعده، فهوالمساند لثورة الشرقيالمشارك فيها، بل والمدافعالشرس عن هوية هذا الشرقي وثقافته الأصلانية.

والأمثلة فيما ذهبنا إليه متعددة، **فجاك بيرك(jacques berque)** وجه من الوجوه الغربية الثقافية الذي انبرى بشهادة العديد من الدارسين العرب للدفاع عن الإسلام والقرآن الكريم، ليكون متضامنا وبشكل صريح أيضا معحق الشعوب المستعمَرة في الحرية والاستقلال كحال الجزائر وفلسطين«كما أيّد النضال من أجل تحرير الشعوب لاسيما الجزائرية وفلسطين، وكان متضامنا مع جميع الذين يناضلون من أجل الحرية والصداقة بين الشعوب»[1]، ومساندة هذا الوجه الثقافي لنضال الشعوب المستعمَرة يعني في المقابل أنه يؤيد محافظة هذه الشعوب لهويتها ولكل ما يمت بصلة وطيدة لجذورها«وحثنا على الانفتاح على العالم وعلى الفخر بانتمائنا إلى البحر الأبيض المتوسط

[1]مصطفى شريف، جاك بيرك، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 2019، ص 13

دون التقليل من جذورنا المتعددة، كما دعانا إلى الربط بين الأصل والمستقبل»[2]، فيؤكد جاك بيرك من خلال أقواله وأفعاله التي رصدتها كتب الدارسين العرب، **أن صورة الغربي المتعصب والمهمش لمن هو مختلف ليست دوما قائمة**، بل هناك صورة أخرى له خفية يجب أن يتم تداولها إنه**ذلك الإنساني المؤيد لوجود المختلف والمساند لكلمايؤيد هذا الوجود ثقافة وهوية**.

لابد ونحن في هذا المقام أن نضرب مثلا آخر عن غربي آخر، ساند الثورات الشعبية التي قامت في الوطن العربي ومنها الثورة الجزائرية، **ولنا في الباحثة والأستاذة المختصة في الأدب الشعبي الراحلة روزلين ليليقريشخير مثال**«ولدت روزلين ليلى قريش لعائلة فرنسية سنة 1930 في بلكور بالجزائر العاصمة، وعملت أستاذة للأدب الشعبي والآداب الأجنبية، كما انخرطت في الثورة الجزائرية، حيث فتحت بيتها لعلاج الجرحى من المناضلين الجزائريين»[3]، بل وقد تجاوزت روزلين ليلى قريش الحدود التي تضعها دوما ثنائية الأنا والآخر، فلم تكتف بالنضال في صفوف الثورة الجزائرية فقط، ليكون لها باع هام في المحافظة على ثقافة البلد الذي وُلدت فيه، مدافعة عنها بشتى الطرق، **إما بحماية ماجادت به مكتبة جامعة الجزائر**«أسهمت إلى جانب المستعرب الفرنسي ميشال باربو في إنقاذ محتويات مكتبة جامعة الجزائر التي أحرقتها المنظمة السرية الفرنسية الإرهابية عام 1962»[4]**أو من خلالالتفافها حول جانب هام من جوانب هذه الثقافة وهو تراثها الشفوي المتمثل في القصص والحكايات والسيرالشعبية**، فلديها في هذا مؤلفات على نحو «القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي» 2007، أو ماهو متصل بالهلاليين بالجزائر كـ«مفهرسة سيرة بني هلال الكبرى» 2010 ، و«مختارات من قصص شعبية شفوية هلالية» 2012، «مفهرسة سيرة بني هلال الكبرى» 2010.

وتنكر الشرقي لإنسانية الغربي قائمة واقعيا، فروزلين ليلى قريش لم تجد إلا اللامبالاة والإهمال من طرف سعت من أجله**لتجاوز صورة الغربي النمطية، المتسمة بالاستعلاء واحتقار المختلف**، بل نجد أن هذا الطرف الشرقي الجزائري بالتحديد هو من اقترن فعليابهذه الصورة النمطية«وفي شهادة د. جلولي في صفحته بالفايس بوك يقول: هذه السيدة كانت تعيش منذ سنوات وحيدة في بيتها، وقد تكالبت عليها الأمراض

---

[2]المرجع نفسه، ص 24

[3]موقع الجديد العربي، رحيل روزلين ليلى قريش، حياة مع الأدب الشعبي الجزائري، www.alaraby.co.uk، تاريخ الدخول 26 سبتمبر 2021، 20:00 مساء

[4]المصدر نفسه

وتقدمت بها السن، وفقدت جميع أقربائها، ونسيها الأصدقاء والزملاء، وتنكرت لها الجامعة التي أفنت حياتها في خدمتها»[5]، ونجد لهذا التهميش الذي مارسه الشرقي الجزائري تحديدا صدى واسعا في مدونتنا المختارة، التي استحضرت شخصية**الرحالة السويسرية ايزابيل ايبرهارت** التي عشقت هذه الأرض فسكنت فيها وتماهت مع ثقافتها تماهيا لامشروطا، لكنها لم تجد سوى النكران والجحود، والمعاملة باستعلاء،**لأنها فقط تمثل الغربي الأجنبي**.

ويدعو بذلك سعيد خطيبي إلى **تفكيك تلك الرؤية النمطية عن الغربي** التي اكتسبتها أجيال المجتمعات المستعمَرة سابقا، تلك التي جاءت بعد الاستقلال وصولاإلى أجيال هذه المجتمعات الصاعدة أيضا، ونضرب في ذلك مثالا يعكس هذه الرؤية وتبنيها المطلق، فالأجيال الصاعدة ترى في تعلم اللغة الفرنسية، لغة المستعمِر العدو الذي احتل الجزائر واغتصب خيراتها وقتّل رجالها ونساءها علنا وسرا،ولكن المفارقة التي تقترن بهذه الأجيال أنها ترفض لغة الفِرنسي وتأبى تعلمها، ولكنها في الوقت نفسه تتهافت على ثقافته بأشكالها الأخرى المتنوعة.

وجود هذه المفارقة في التعامل مع الغربي، أثارها وبقوة سعيد خطيبي في خطابه الروائي هذا، فالمجتمعات المستعمَرة سابقا، وإن رحبت بوجود هذا الغربي كأن يكون مناضلا في صفوف ثورتها ، ويُسهم إسهاما فعّالا في رسم مسار استقلالها، فهي من جهة أخرى تعامله معاملة الغريب المنبوذ، بل تسعى سعيا لإقصائه«يمكن القول بأن كتاب مابعد الاستعمار يشكّلون منظومة فكرية مؤثرة وفاعلة، ترى مجموعة التناقضات، فتعرّي هذه التناقضات أو تفككها»[6]، فخطيبي من هؤلاء الكتاب الرافضين لاستمرارية هذه الرؤية العدائية للغربي، والداعين لإلغائها في تقربنا منه تقربا حضاريا وليس تقربا يُسبب تضييع الهوية الأصلانية«دراسة صورة الآخر في الأدب العربي فيفيدنا في فهم الذات والآخر معا، وبذلك نستطيع أن نتعرف على بعض الإشكاليات الفكرية والاجتماعية والنفسية التي نعانيها نحن العرب في مجال رؤية الآخر، التي كثيرا ماتكون انعكاسا لأخطاء نرتكبها في الفهم والتحليل، وانعكاسا للجهل وعدم معرفة الآخر عن

---

[5]المصدر نفسه

[6]طارق ثابت، هوية الأدب بين الحضور والغياب في الخطاب النقدي العربي مابعدالكولونيالي، مجلة الأثر، جامعة ورقلة، ع21، ديسمبر 2014، ص 107

قرب»[7]،بل ويدعو من خلال اختياره للشخصية الرئيسة **المناضل الفرنسي يوسف أو الحاج جوزيف**كما يناديه أهل بوسعادة،- المدينة التي عشقتها هذه الشخصية وبقيت فيها راغبة لا مرغمة طيلة أربعين عاما - أن يتقبل الشرقي أو المستعمَر السابق هذا الغربي بل ويسهّل عليه رغبة التماهي معه ثقافة ووجودا.

وعلى الرغم من رفض سعيد خطيبي استمرار قيام رؤية نمطية متوارثة عن الغربي، الذي اقترن بمفارقة غيّبت روحه الإنسانية التي أبداها للشرقي، فإن مسألة تفكيككل هذا صعب بمكان وهو ماأكده الروائي ذاته، حين تلفظ المجتمع البوسعادي الحاج يوسف بعد أن عمّر طويلا بين ظهرانيه، عائدا إلى موطنه الأم فرنسا مكرها، و من خلال هذا كلّه سنعمل على إثارة نسق معين من بين الأنساق الثقافية المتعددة التي وقفت عندها مدونتنا المختارة، وهو **نسق الأنا والآخر**، **متسائلين هل سلّم سعيد خطيبي بالحضور الطاغي لثنائية الأنا والآخر، وتشكيلها لنسقية نمطية متواترة؟ أم سعى لتفكيك هذا الحضور، وكيف جسد ذلك؟** سنحاول الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال خطة بحث ترتكز على 1- نسق الأنا والآخر والرؤية الإنسانية في المدوّنة المختارة، 2- نسق الأنا والآخر والرؤية الاستعلائية في المدوّنة المختارة، مع تكليل كل هذا بخاتمة ترصد أهم النتائج المتوصل إليها من خلال تحليلنا للنسق المذكور أعلاه.

1-**نسق الأنا والآخر والرؤية الانسانية في المدونة المختارة:**

بات الانفتاحمؤخراعلى ما تقدمه أقلام المنطقة المغاربية متناميا بشكل لافت في العالم العربي المشرق منه خاصة، لما تقدمه هذه الأقلام من معالجة سردية مختلفة، تحديدا بعد مرور سنوات على استقلال شعوب هذه المنطقة، فإذا عُني الخطاب الروائي للأقلام الإبداعية الجزائرية على سبيل المثال فترة مابعد الاستقلال بتمجيد الثورة الزراعية التي احتضنها الحزب الحاكم آنذاك،أو بمعالجةالثورة التحريرية ولأبطالها الأحياء منهم والأموات، وإذا سعى فترة التسعينيات لكشف دموية العشرية السوداء التي عمّقت قهر الفرد الجزائري، فإن مساره مختلف تماما مع نهاية تلك الفترة المأساوية وبداية الألفية الجديدة، **فالتفافه صار حول قراءة التاريخ الجزائري خاصة ما يتعلق بعلاقةالمستعمَر الجزائري بمستعمِره الفرنسيالسابق**«الروائي قام باستدعاء التاريخ الجزائري المرتبط بالاستعمار الفرنسي، والتعالق التاريخي يُشكّل بعدا تواصليا أساسيا،

[7]ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2010، ص 30

ويفرض على المتلقي مسايرته، وهو ماقام به الروائي من خلال نسجه لحبكة روائية تبسط كل حيثيات التاريخ، وتعيد رسم المواقف النمطية المألوفة في التسجيلات الكلاسيكية»[8]، ولأن الروائي هو رُبان السرد مسيرا دفته كيفما يشاء، فهو يختار الصوت السردي الذي يمثله ناقلا من خلاله للمتلقي رؤيته تجاه وضع اجتماعي أو ثقافي أو سياسي ما، فاختار سعيد خطيبي أن يكون **هذا الصوت المقترن بكل ما ذكرناه ذلك المختلف ثقافيا الفرنسي الأصل الجزائري النضالالبوسعادي الهوى الحاج جوزيف أو الحاج يوسف كما يرغب أن يناديه أهل حيه البوسعادي البائس**.

واختيار خطيبي لهذا الصوت السردي **ملمح هام** في **مسار تفكيكه لصورة الخطاب الروائي العربي مابعد الاستعمار**، الذي يمنح في الأغلب حضورا قويا للأصلاني، ناقلا للمتلقي وجودا عربيا مربكا، وعلاقة مع الغربي قائمة على**التوافق والانسجام النادر أو الاختلال واللاتوازن المطلق**، والأمثلة عن حضورالصوت الأصلاني، وتواصله الحضاري مع الغربي متعددة جدا في هذا الخطاب، وسنختص ذلك بأمثلة مقترنة زمنيا بالألفية الجديدةتحديدا**كالمنجز الروائي للتونسية خولة حمدي**، التيأولت فيه لتلك العلاقة الجامعة بين الشرقي والغربي، خاصة بين أبناء المنطقة المغاربية والغربي الفرنسي- المستعمِر السابق- لتختار صوتا سرديا ينقل مد وجزر هذه العلاقة كياسمين من تونس في "**غربة الياسمين**" أو خليل الشاوي الجزائري في "**أن تبقى**"، والأمر كذلك بالنسبة لما كتبته **رضوى عاشور** في علاقة الفلسطيني باليهودي في منجزها الروائي ك"**الطنطورية**"، مانحة الصوت السردي الغالب لشخصية فلسطينية اسمها" **رقية بنت أبي طارق**"، ليحكي هذا الصوت مأساة صاحب الأرض -الفلسطيني- المهجّر قسرا من أرضه، فكما غيّب اليهودي هذا الفلسطيني عن جذوره واقعيا، غيّبت الروائية في خطابها السابق الذكر هذا اليهودي،فلم تمنحه مطلقا صوتا سرديا،محافظة في المقابل على صورته الواقعية المقترنة بروح الاستعلاء وشهوة الاغتصاب.

والملمح الثانيالمساعد على تفكيك صورة الخطاب الروائي العربي مابعد الاستعمار،المقترن بهذا الصوت السردي المختار في مدوّنتنا المختارة**صيغته التي جاءت في صورة المفرد المتكلم**«لاشكّ وأن السرد يقدم إلى القارئ بصوت راو أو سارد يتوسله الكاتب الروائي لتأدية غرض فني، بمعنى أن الكاتب هو الذي يحدد طبيعة الراوي

---

[8] مولود بوزيد، نصيرة عشي، الأبعاد التوالية في رواية" أربعون عاما في انتظار إيزابيل" لسعيد خطيبي، مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية، المركز الديمقراطي العربي، برلين، ألمانيا، مج 4، ع15، تشرين الأوّل 2020، ص 341

ونوعيته»[9]، ووراء **هذا الاختيار قصدية معيّنة تأويلها قائم على أن سعيد خطيبي سعى سعيا حثيثا لتأسيس صورة جديدة لذلكالغربي الذي تشبع بثقافة الأصلاني وعايشها بل وتعايش معها**، لتصبح ثقافةبديلة لثقافته الأم التي أضحت عنده ملغاة باختيارية مطلقة ، ولن تقوم هذه الصورة الجديدة إلا على أنقاض الصورة النمطية التقليدية التي ترى وجوب أن يبقىالغربي -خاصة إذا كان انتماؤه لمن شكّل قوة استعمارية سابقة كالمستعمر الفِرنسي- ذلك المختلف الغريب الذي لايحق له أن يكون أنا أصلانية مهما كان اقترابه من ثقافة الأصلاني ونسبة تماهيه معها.

لقد أسس سعيد خطيبي بهذا خطابا مضادا للخطاب الروائي العربي مابعد الاستعمار، حين منح الغربي مساحة نصية طاغية، فيكون الغالب سرديا وهو المغلوب واقعيا، وليسترجع من خلال ذلك أناه الأصلانية الجزائرية المستلبة من الأنا الجديد«يعتبر إدوارد سعيد أن مقاربة الظاهرة الأدبية لاينبغي أن تركز على طرف واحد بتغليبه على الطرف الآخر بمبررات إيديولوجية، بل وُجب منح الظاهرة الأدبية وحدتها وانسجامها الداخلي بشكل يكشف عن غناها، وهو ما يفسح المجال لكل الأصوات لتفصح عن نفسها بدل قمعها أو إغفالها»[10]، ولأن الحاج يوسف هذه الأنا الأصلانية، فقد نقل صورتها بإيجابيتها القليلة وسلبياتها الكثيرة المتنامية، كاشفا دواخلها القائمة على المفارقة في التعامل مع الحياة فترة مابعد الاستقلال، مابين رتابة غالبة ونزوح نسبي ضئيل نحو التغيير.

ويستحضر سعيد خطيبي إذن الأنا الأصلانية للغربي حين منحه تسيير دفة السرد، ناقلا بذلك رؤية المتلقي الجزائري منه خاصة إلى رؤية جديدة **هو أن هذا الغربي أنا أصلانية بسبب هذا التواصل الروحي بينه وبين أرض دافع عنها وعاش فيها، ودين جديد اعتنقه ومارس شعائره**، على الرغم من أن له أرضا أخرى ينتمي إليها فعليا، ودينا مسيحيا متوارثا ليتأسس وفقا لهذا تعاطفا لامحدودا بين هذا المتلقي وهذه الشخصية، **بل هو تعاطف انتقل في حركيته من داخل النصي إلى خارج النصي**، حين يقوم هذا المتلقي بالبحث عن حضور كل غربي رضي أن يعيش في أرض الجزائر، متتبعا طرق حبّه لها، فيسعى بذلك لإعادة الاعتبار له سواء ذلك الذي ينتمي للبلد المستعمَر –

[9]عبد القادر بن سالم، بنية الحكاية في النص الروائي المغاربي الجديد، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، لبنان، ط1، 2013، ص 186

[10]هشام بن الهاشمي، الكتابة المسرحية العربية وأسئلة مابعدالكولونيالية، منشورات المركز الدولي لدراسات الفرجة، المغرب، ط1، 2016، ص 57

فِرنسا- أو للذي لا ينتمي إليه، كما قام بذلك سعيد خطيبي نفسه الذي أبدى تعاطفه مع كل فرنسي أبدى إنسانية مطلقة مع هذه الأرض ومع أهلها، مؤكدا أنه جزائري بالفعل، مجسدا ذلك في شخصية الحاج جوزيف أو الحاج يوسف، **بل كان هناك تعاطف عكسي من الخارجالنصي إلى الداخل النصي** أبداه الروائي حين استحضر وبصوت سارده تاريخ شخصية واقعية هي شخصية الرسام الفِرنسي إيتيان دينيه، وعلاقة المفارقة التي ضمت واقعيا هذا الغربي بالشرقي صاحب الأرض والثقافة الأصلانية«للفنان إيتيان دينيه أو الرومي كما يُسميه كبار السن، فرغم أنه عاش هنا أكثر من أربعة عشر عاما، تعلّم العربي وحفظ القرآن وخالط الناس ووقف إلى جانبهم في محنهم وفي مآتمهم، وأطعمهم بعضا من رزقه، فقط ظلوا ينظرون إليه غريبا بعين الريبة، يتوجسون منه مثلي أنا تماما »[11]، **بل إن الروائي استحضر وفي إطار التعاطف من خارج النصي إلى الداخل النصي شخصية واقعية أخرى هيالرّحالة السويسرية إليزابيث ايبرهارت**، تلك التي عشقت أرض الجزائر لتستقر في مدينة"عين الصفراء"، فتتبع حضورها الواقعي من خلال كتبها المختلفة والتنقل لتلك المدينة التي اختارتها دار مقامة لها.

ويتأكد من خلال هذين الملمحين طبيعة المثقف الأصلانيالذي مثله هنا سعيد خطيبي، فهولايرى في المختلف الغربي سوى روحه الإنسانية، متجاوزا بذلك تداعيات التاريخ الاستعماري العامل المساعد على توتر العلاقة بين هذا الشرقي والغربي، وهنا نقابل بين القراءة الطباقية للمدوّنة المختارة وتلك التي عرفها الخطاب الروائي الكولونيالي، بل الخطاب الكولونيالي عامة إن كان مسرحا أو رواية أو رحلة، فإن أ كد هذا الخطاب تطابقه مع الروح الاستعلائية والعدائية المطلقة للمستعمِر تجاه المستعمَر، فقد عكست المدونة المختارة من خلال مبدعها روحا تسامحية إنسانية موجودة واقعيا -وإن كانت بنسبة قليلة- عند الأنا (الشرقي ماقبلومابعد الاستعمار)، لتتقمصهاسرديا**شخصية المناضل الجزائري سليمان**، الذي رأى في الغربي جوزيف الانسان وليس صورة للمستعمِر الفرنسي أو من بقاياه«قبل خمسة أشهر، أجريت عملية لإزالة الماء الأبيض من عيني في المستشفى الوحيد في المدينة، ولم أجد شخصا آخر يقف بجانبي ماعدا سليمان، الذي كان يجلس بجذع جسمه الطويل، يشدّ على يدي ويكرر- شدة وتفوت، طهور يا العميرة، - الله يخليك لي، هو كل ما أملك، هو أهلي وعائلتي، سبب

---

[11]سعيد خطيبي، أربعون عاما في انتظار إيزابيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، لبنان، ط1، 2016، ص 12

خصوماتي وبوصلة مباهجي الصغيرة»[12] فتكفي صحبته له التي بلغت أربعين عاما، تلك التي أكدت هذه الرؤيا وعمّقتها بعلاقة أخوية لم تستطع الرؤية السلبية للأنا الجديدة وأدها.

ورغبة سعيد خطيبي في تأسيس هذه الصورة الجديدة للغربي، **يعني في المقابل إعلان رفض مطلقأنيمارس الشرقي الفكر الإقصائي الذي تبناه الطرف الأوّل في صورته الاستعمارية ومابعد الاستعمارية**أيضا«لقد وقع في آفة التعميم كثير من الباحثين، حين درسوا الآخر، فسقطوا في مزالق فكرية تتبنى فكرا إقصائيا، يُعلي شأن الذات ويحتقر الآخر، عندئذ تحاصرهم جدران التعصب التي تنفي "الأنا" قدر ما تنفي الآخر»[13]، وما اختيار خطيبي **للمدة الزمنية أربعين عاما**، وهي مدة بقاء الشخصية الرئيسة في الجزائر وتحديدا في بوسعادة، إلا تأكيد على هذا الرفض، فلقد كانت مدة كافية جدا لتختمر الثقافة الأصلانية في ذات الغربي جوزيف، ليتبناها بشكل مطلق لا رجوع فيه،**وليؤكد سعيد خطيبي بهذا أن ثنائية الأنا والآخر ثنائية موهومة**، يصنعها فكر إقصائي، غايته تثبيت ثقافة أُطلق عليها **الثقافة الغالبة**، وإلغاء ثقافة أخرى مُنح لها لقب **الثقافة المغلوبة**، ولينتشر في المقابل اعتقاد نمطي مطلق بأن **الثقافة الأولى ثقافة أبدية وأنها الثقافة المانحة دوما، مقابل اعتقاد مطلق نمطي هو الآخر بأن الثقافة الثانية ثقافة ناسخة تابعة باستماتة ودون هوادة للأولى.**

ويؤكد الصوت السارد بضمير المتكلم الحاج يوسف أنه تلك الأنا الأصلانية الجزائرية في اكتسابهالماهو سلبي من ثقافة الأنا الجديدة**كالإيمان المطلقباللاتغيير وممارسته سلوكا مسلما به.** فإذا كان هذا الشرقي الجزائري تحديدا لم يسع لتطوير ذاته والتقدم بها للأحسن خاصة وأنه نال الاستقلال منذ مدة طويلة، فهذا يؤكد نجاح المستعمِر في وأد ثقافته وفي جعله مسلوب الإرادة لدرجة وصلت لتحقيق اللاتغيير والإدمان عليه، الأمر الذي انعكس حتى في الفضاء الذي يعيش فيه، ذلك الذي لم يبرح صورته السابقة فترة الاستعمار من حيث بناؤه وفقر العيش وشظفه «لم يستوعبوا كيف لفرنسي ميسور الحال يترك بيته المريح في الضاحية الباريسية، يتخلى عن حياة الترف المباحة، ويزاحمهم مشقّة العيش في مدينة تندر فيها المواد الغذائية الأساسية وتصطف

[12] المصدر نفسه ص 17، 18

[13] ماجدة حمود، مقدمة كتاب جماعي إشكالية الأنا والآخر(نماذج روائية عربية)، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مارس 2013، ص 22

فيها كل صباح، طوابير طويلة للحصول على لترَي زيت أو كيلو غرام واحد من السكر»[14]، فالقوي حسب سعيد خطيبي ليس دوما المتقدم حضاريا ذلك الذي سيؤثر إيجابيا فيمن سيتفاعل معه تفاعلا قريبا أو بعيدا، **ولكن القوي هو أيضاذلك المتخلف حضاريا الذي سيكون له التأثير الفعّال نفسه لذلك الذي أحدثه القوي المتحضر**، لكن مع **اختلاف في طبيعة التأثير الذي سيكون سلبيا في المطلق**، ليكون صداه كبيرا في المطلق أيضا كما أكدته بذلك الشخصية الرئيسة الحاج يوسف**ليكون تلك الأنا الأصلانية بجدارة واستحقاق**، فهو لم يفكر في تغيير البيت المتداعي الذي يسكنه وصديقه سليمان، بل ولا أن يغادر الحي البائس الذي عاش فيه أربعين عاما وسط إنكار وجوده .

وهنا نقف عند التعرية المتواصلة التي يقوم بها سعيد خطيبي تجاه المجتمعات الشرقية بعد استقلالها الطويل، **فتأثيرها السلبي يطبع مواطنيها أولا**بسببعوامل مساعدة داخلية وخارجية، كما يطبع المقيمين بها سواء أكانوا أجانب أم مهاجرين جاءوا بعد أمد لبلدانهم الأصلانية، فتتغير ثقافتهم من حسن التصرف وتطبيق النظام واحترامه والسعي للتغيير إلى سوء التصرف وتغييب النظام وخرقه في حالة وجوده، وقد وقف الحاج يوسف عند كل هذه السلوكات ، **لكنه لم يفكر في مغادرة تلك المدينة التي يصفها بشكل مكرر بمدينة البؤس والفقر المدقع، لدرجة أنه شبهها بالمدينة الحفرة**«شيخ في السبعين مثلي خاض حربين، احب ناسا كثيرين وكره آخرين، كان يجب أن يكون في مكان يليق بعجزه، المهم كان يجب أن لا أجد نفسي هنا، في حفرة تحمل صفة مدينة»[15]، مخالفا هنا تصرف الشرقي والجزائري منه تحديدا، الذي يزداد قناعة وبشكل يومئ بضرورة مغادرة الفضاء الأصلانيوالانتقال بأي طريقة كانت لفضاء الشمال المتطور ليتنفس حضارة وتقدما، بل وليسترجع حسبه الحس الإنساني الموجود فيه والموؤد هنا في بلده الأم.

2-نسق الأنا الآخر والرؤية الاستعلائية في المدوّنة المختارة:

نقل لنا الخطاب الروائي العربيمابعد الاستعمار ذلك الذي ارتكز في موضوعه الأساس على إثارة علاقة الشرقي بالغربي ورصد صورة هذه العلاقة بين مدها وجزرها، **تأثر ذلك الشرقي بثقافة الغربي**، لدرجة التماهي معها لأبعد الحدود، خاصة وأن هذا التماهي تحقق بحضور أكبر والشرقي في **رحلة** من الجنوب للشمال، **لنجد لهذا التماهي**

---

[14] أربعون عاما في انتظار إيزابيل،، ص 12

[15] المصدر نفسه، ص 17

صدى في مدونتنا المختارة لكنمعطرف جديد هو هذا الغربي الذي قاد رحلة من الشماللللجنوب، وهنا لابد لنا من وقفة توضيحية عن سبب تماهي كل طرف مع الآخر والأرضية الأساس لتشكل رحلتهما.

يرى الشرقي في الغربي على الدوام ذلك القوي الذي لا يُقهر والصائب الدائم الذي لايُخطئ، وأن احترامه لإنسانية مواطنه قائمة وعامل أساس لتقدمه، فراح يقلده تقليدا أعمى لنجد أنفسنا أننا دوما أمام طبيعة الشرقي«المغلوب يتشبّه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله»[16]، ولأنه كذلك، فالشرقي يرى دوما نفسه أقل تحضرا وقوة من هذا الغربي المهيمن، لتقوم عنده في المقابل رغبة جامحة ومتواصلة بالارتحال للضفة الأخرى، **والشعور بروح المغلوبية** هذه ليست وليدة هذا القرن، بل هي لصيقة بهذا الشرقي وهو تحت نير الاستعمار،**في حين تتعدد أسباب رحلة الغربي لفضاء الشرقي**، فهو يريد اكتشاف ذلك السحر المرتبط بالثاني، إنه بالنسبة إليه فضاء عجائبي لن تنضب أبدا حكاياته ومغامراته، ونجد لهذا صدى فيما كتبه روائيون غربيون منهم**غابريل غارسيا ماركيز المتأثر بسحر الشرق، فتعدد منجزه الروائي حول ذلك ومنه"مائة عام من العزلة"**، ليقوم سبب آخر نجد له حضورا في مدونتنا المختارة وهو **قوة نضال هذا الشرقي واستماتته في الدفاع عن هويته وركائزها.**

وإن شارك الحاج يوسف في الحرب العالمية الثانية كونه ضابطا في الجيش الفِرنسي، فإنه رفض رفضا قاطعا أن يُشارك في محاربة الجزائر، ولأنه انبهر بثورتها ضد بلده الأم، فقد قرر الانضمام لصفوفها ومواجهة غطرسة فرنسا المستعمِرة، وهنا **تقوم أولى محاولات الغربي في تفكيك صورته النمطية وهي الصورةالاستعمارية**، ليُفكك في المقابل طبيعة رحلة الغربي المستعمِر الذي أسسها باختيارية مطلقة،**هذا يدفعنا لنقابل بين رحلة الغربي المستعمر المغتصب لهوية الجزائري وبين رحلة الغربي المناضل في صفوف الثورة الجزائرية الذي جسده سرديا الحاج يوسف، إنها الرحلة ذات الاتجاه الواحد من الشمال للجنوب**، فهي عند هذا الأوّل بناء الإنسانية الموؤدة في كل أجيال الجزائر فترة الاحتلال إلى مابعدها وصولا للألفية الجديدة«إن الانسان لايستطيع إلا أن يكون شقيا في ظل الحرب الفرنسية»[17]، بينما هدفها عند الثاني هو استرجاع هذه

---

[16] عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1998، ص 146

[17]جون بول سارتر، الاستعمار الجديد، تر عايدة وسهيل إدريس، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط2، 1966، ص 20

الإنسانية الموؤدة«صحيح إن معظم الجزائريين يعيشون في بؤس لايُحتمل، ولكن صحيح أيضا أن الإصلاحات الضرورية لايمكن أن تتم على أيدي المستعمرين الصالحين ولا على المتروبول نفسه مادام يدّعي المحافظة على سيادته في الجزائر، والحق أن هذه الإصلاحات ستكون من شأن الشعب الجزائري نفسه حين ينتزع حريته»[18]، وإن تكللت رحلة الغربي المستعمِر بالنجاح بأن اغتصب الأرض الجزائرية وأفقر أهلها«الجزائريون مطرودون من أرضهم ، محشورون في أرض غير منتجة، مقسورون على أن يعملوا برواتب هزيلة مضحكة... فمادامت فِرنسا منذ اليوم الأوّل ق انتزعت من الجزائريين أملاكهم وأبعدتهم عنها، فإن العمل ِ الفِرنسي كلّه في الجزائر قد أُنجز لصالح المستعمِرين»[19]، فإن رحلة الغربي المناضل تكللت بالفشل الذريع**حين استعار المستعمَر السابق صورة المستعمِر السابق وخاصة في تبني الروح الاستعلائية**.

تؤكد المدوّنة المختارة أن الشرقي يسعى مثلما سعى ويسعى إلى ذلك الغربي نفسه إلى **تبني الروح الاستعلائية**، وقد ساعد الاستقلال على بروز هذه الروح التي كانت خامدة فترة الاستعمار، **فمثلما هناك قابلية مطلقة للتماهي مع الغربي وحضارته**، هناك في المقابل قابلية يبديها هذا الشرقي **وهي التماهي مع الروح الاستعلائية الاستعمارية** دون مناقشة أو الدخول في حوار عقلي منطقي لرفضها، وقيام هذه الروح الاستعلائية يعني أن كل من هو مختلف ثقافيا فهو ذلك الآخر الغريب، **ويعني أيضا أن تفكيك ثنائية الأنا والآخر أمرمستحيل بمكان**، واستحالة التفكيك هذه يعني في **المقابل استمرار الروح الاستعلائية وديمومتها**، وهذا ماجاء في مدونتنا المختارة ، مؤكدا سعيد خطيبي وبشكل مضمر أن الشرقي أو هذه الأنا الجديدة تتقمص بشكل حرفي صورة الغربي في تعامله مع المختلف عنه ثقافيا«ويبدو أن الشرق هو أكثر الأعداء حضورا في وعي الغرب في الماضي والحاضر»[20]، وهنا يوجه الروائي دفة الرؤية توجيها نراه منطقيا، فلايجب التبني النمطي المطلق بأن الغربي هو دوما من يهمش الشرقي ويعامله باستعلاء ويراه العدو اللدود،بل إن هذا الشرقي هو بذاته من يهمش الغربي ويعامله باستعلاء أيضا، وعدّه شعوريا ولاشعوريا**عدوه الدائم**«ثمة رغبة لاواعية في تنزيه الذاتورفعها فوق الآخرين»[21]، فهذا الجانب الثقافي المتمثل في الجانب السلوكي الذي أضاءه سعيد خطيبي موجود وقائم،

[18] المصدر نفسه، ص 21

[19] المصدر نفسه، ص 30، 31

[20] ماجدة حمود، مقدمة كتاب جماعي إشكالية الأنا والآخر(نماذج روائية عربية)، ص 22

[21] ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، ص 30

ولكن التعامل معه واقعيا يعتريه الكثير من المغالطة والتشويه والتكميم، والسبب رغبة خفية قابعة في نفس الشرقي هو إبقاء ذلك التبني النمطي المطلق السابق الذكر قائما باستمرار.

ولم تتوقف تجليات الروح الاستعلائية للشرقي فيما سبق ذكره فقط، بل في ديمومة ما يُسمىباللاهوية. فإذا عرف الشرقي هذا المفهوم في الخطاب الروائي العربي مابعد الاستعمار بفعل **أولا**رفض الغربي له على الرغم من تماهيه المطلق معه ومع ثقافته، و**ثانيا**بفعل تضييع هويته الأصلانية من جهة أخرى، فكذلك عرف الغربي هذا المفهوم وتواصل معه مثلما كشفته المدوّنة المختارة، وهنا **ندرك أن الطرفين هما ضحية هذه الروح الاستعلائية التي ارتبطا بها معا،فالغربي يرى في الشرقيأولا** ابن الجنوب المتخلف البعيد عن الحضارة والتمدن، الضعيف غير القادر على تسيير شؤونه حتى في نيله لما يُسمى بالاستقلال، و**ثانيا** ذلك المستعمَر السابق الذي أخرجه قهرا من أرض زعم أنها ملكه، بينما **الشرقي وحسب المدونة المختارة** له رؤية أحادية تجاه الغربي فهو ذلك المستعمِر السابق الذي يجب أن يبقى ذلك العدو مهما سعى هذا الغربي لرفض تلك الصورة فعلا وسلوكا.ولن تشفع الإقامة الطويلة التي حققها الطرفان في فضاء المختلف من تغيير هذه الرؤية وبالتالي من تفكيك مفهوم اللاهوية هذا.

ومهما سعى الشرقي لتحقيق نجاح علمي عبر إقامته الطويلة هذه محققا الربح الوفير للغربي، إلا أنه يظل ذلك الغريب والفرد الذي لاهوية واضحة يمتلكها، وهاهو الغربي أيضا وإن أبلى بلاء عظيما في ثورات الشرقي المتعددة، بل وإن كان صاحب موهبة كموهبة الرسم مثلا، فلن يوليه الشرق الأهمية التي يستحقها، بل ولن يخرجه من معترك اللاهوية، فالحاج يوسف المناضل السابق في الثورة الجزائرية لم تقدر تضحيته التي كلّفته بعدا قسريا عن موطنه الأصلي فرنسا، سوى أن يقيم في حي بائس فقير، بل وفي بيت متهالك مدة أربعين عاما رفقة سليمان الذي صاحبه طويلا ولم يفترقا مطلقا سواء في فضاء بوسعادة أو حتى في رحيلهما القهري لفرنسا« في هذه الغرفة الاسمنتية الضيّقة مهترئة الجدران، مشقّقة الزوايا الأربع، المطلية بالأصفر الباهت، المكتظة بأغراض قديمة وملابس بالية ومقتنيات أربع عقود من الخردوات والقطع الفنية»[22]، والأهم الذي نقف عنده هنا ونحن نتحدث عن اللاهوية أن الشرقي أنكر نكرانا مطلقا **إنسانية الغربي**، ليستعير بهذا صورة المستعمِر السابق الذي مارس قبله الإنكار ذاته

[22]أربعون عاما في انتظار إيزابيل، ص 12

تجاه من استعمره واغتصب أراضيه، **إنه الاستمتاع بالمركزية الوهمية من جهة وبممارسة السادية من جهة أخرى**، وهذا الإنكار مثلما دفع المستعمَر السابق للبحث عن هويته، راح هذا الغربي هو الآخر في رحلة بحث عنها«إن الاستعمار من حيث هو نفي منظّم للآخر، من حيث هو قرار صارم بإنكار كل صفة إنسانية على الآخر، يحمل الشعب المستعمَر على أن يتساءل دائما هذا التساؤل" من أنا في الواقع»[23]، لكن رحلة البحث هذه عند الغربي باءت بالفشل سواء وهو في بوسعادة أو في عودنه القهرية لفِرنسا، ليبقى متواصلا مع اللاهوية تواصلا قويا.

كما رغب سعيد خطيبي أن تكون ذاكرة هذا الوطن مسترجعة من الغربي وليس من الشرقي الذي يُمثل الدعامة الأساس لحركية السرد في الخطاب الروائي العربي مابعد الاستعمار،لتحتفي هذه الذاكرة **بصور عديدةشكّلت الروح الاستعلائية**تجاه الغربي خاصة، فيتم بهذا المحافظة القوية لثنائية الأنا والآخر وديمومتها، فتعززت بذلك الرؤية العدائية لذلك **الغربي بتوسع مدار الفكر الإقصائي الذي ازداد تطرفا ضده، فهو من بقايا الاستعمارولا حل له إلا التخلص منه نهائيا**« أعرف أن بعض سكان هذه المدينة يعتقدون أن الحكومة دسّتني بينهم للتلصص عليهم لما ينامون أو يستنمون، أولاد الكلاب يعتقدون أنني من بقايا الاستعمار، وان الكون يتوقف عليهم، على زفراتهم وأنفاسهم، وأن العالم سيختل بنهايتهم، لكن لن أعير اهتماما، فقريبا سأرحل»[24]،بل**طالت هذه الرؤية العدائية أيضا الأناالأصلانية الإنسانية**على وجه الخصوص، كحال سليمان الذي عومل معاملة المنبوذ، لدرجة اتهامه بالشذوذ بسبب علاقته الروحية واللصيقة بالحاج جوزيف الفرنسي، ولايمكننا ونحن نرصد صورة الفكر الإقصائيالتطرفي ومعاناة الغربي معه في مدونتنا المختارة، إلا استحضار صورة الشرقي في الخطاب الروائي العربي مابعد الاستعمار، وهو يعاني من هذا الفكر الإقصائيالتطرفي في فضاء الغربي الذي يطالب على الدوام برحيله من أرضه ممارسا عليه في الوقت نفسه ضغوطات نفسية تتنامى يوميا من خلال انتهاج أساليب عنصرية متنوعة ومقصودة، كرفض لباس الحجاب مثلما هو قائم في فرنسا تحديدا،لأنه يمثل الإسلام الذي يشكّل بؤرة الإرهاب ومصدره الأساس حسب هذا الفكر.

[23]فرانز فانون، معذبو الأرض، تر سامي الدروبي، جمال الأتاسي، مراجعة عبد القادر بوزيدة، منشورات أنيب، الجزائر، دار الفرابي، لبنان، 2004، ص 276

[24] أربعون عاما في انتظار ايزابيل، ص 132

وممارسة الطرفين للفكر الإقصائيالتطرفي يعني في المقابل قيام **منظومة شديدة التماسكوهيمنظومة العنف**، التي تعد قديمة عند الغربي في صورته الاستعمارية، متواصلا معها وهو منفصل ماديا عن هذا الشرقي أو المستعمَر السابق بعد استقلاله، الذي تواصل بدوره مع هذه المنظومة لكن بأكثر حدّية مؤسسا **منظومة العنفالمضاد**، التي كان ضحيتها كل غربي انساني أقام في هذا الأرض، مثّله سرديا الحاج يوسف، الذي لم يكن إلا امتدادا لشخصية واقعية وهي**الرّحالة السويسرية إليزابيت إيبرهارت**، لقد استوطنت منظومة العنف المضاد دواخل هذه الأنا الجديدة أو الشرقي منذ زمن وإن كانت مضمرة بصورة غالبة، لتتراوح بعد استقلاله بين الاضمار حينا والظهور القوي في معظم الأحيان، فهذه الشخصية السردية–الحاج يوسف- تؤكد أن مصير كل غربي وُجد واقعيا على هذه الأرض وتماهى معها تماهيا لامشروطا، ومهما اختلفت فترة التماهي هذه زمنيا، فالمصير واحد وهو النبذ المطلق له أو التطهير المطلق لوجوده، كإثميرغب هذا الشرقي في التكفير عنه.

ليس الشرقي هو فقط المهمش بين الواقع والخطاب الكولونيالي، بل للغربي حظ كبير من هذا التهميش المقصود، وهو تهميش لايطاله فقط وهو على قيد الحياة، بل وحتى بعد موته تماما«إيزابيلاإيبرهارت ترقد في مقبرة، لاتختلف عن مقبرة السنة هنا، تريح قلبها هناك في "سيدي بوجمعة" بعين الصفرا، ولكن هل تزورها هي أيضا نسوة كلّ جمعة؟، هل يحملن إليها عطورا رديئة وبخورا وقصاصات ورق كُتبت عليها أدعية، هيتركت وصية بأن تدفن حيثما تموت ونُسيتأنها تعيش في خلوتها وحيدة منعزلة تماما كما عاشت في حياتها البوهيمية»[25]، وإن سعى سعيد خطيبي لرد الاعتبار لشخصية هذه الرّحالة من أجل تعاطف المتلقي العربي والجزائري كما ذكرنا آنفا مع كل غربي تفانى مع هذه الأرض«يحاول الكاتب رد الاعتبار لهذه الشخصية المهمشة والمظلومة تاريخيا، كما يحاول دحض الشائعات التي طالتها بتهمتي الجوسسة والعمالة، وعدم السماح بتشويه سيرتها وصورتها»[26]،فهدفهالمضمرتقديم المفارقة الواقعيةللأناالأصلانية، فإذا كانت الصورة الأولى لها عدائية تتقاطع بقوة مع عدائية المستعمِر السابق، فإن هناك صورة ثانية للأناالأصلانية التي يمثلها أيضا ذلك الغربي المتماهي مع هذه الأرض وثقافتها، وقد عملت الصورة الأولى على إلغاء وتغييب الصورة الثانية عبر مسار تاريخي متطور، بدايته

---

[25]المصدر نفسه، ص 57

[26]مولود بوزيد، نصيرة عشي، الأبعاد التواصلية في رواية" أربعون عاما في انتظار إيزابيل" لسعيد خطيبي، ص 349

الماضي القديم وصولا للحاضر القائم، لتعيش تلك الأنا الأصلانية الإنسانية الإيجابية تهميشاأكثر،ولتعرف وحدة أكبر سواء في حياتها أو بعد مماتها، ذلك ما عرفه مفكرو هذه الأرض وعلماؤها ممن ولدوا في هذه الأرض، أو ممن عشقوها وتماهوا معها ثقافة ووجودا.

ونقف من خلال رصد صورة الروح الاستعلائية للأنا الجديد-الشرقي- وتجلياتها في المدوّنة المختارة، عند مضمر آخر يخص هذه الأنا، ويرغب –حسبنا- سعيد خطيبي في إثارته، **أن الروح الاستعلائية هذه التي يتخذهاالشرقي منهجا له للتعامل مع الآخر الغربي**، لا تنطلق من أرضية صلبة قوامها التحضر والتقدم، **بل من أرضيةتزداد هشاشة مشكّلة ثقافة أهل المدينة والجزائر ككل كالبصاق على الأرض**«ولا أبصق أو أقذف مخاطا على الأرض مثلهم»[27]، **والتلصص على أخبار الغير**«أعرف أن الجدران تلتقط دبيب النملة، وحكاياتي في البيت قد تبلغ بسهولة بيوتا مجاورة، هذه خاصية عربية تعلّمتها ولم أغفل عنها، الناسلايتنازلون عن حقهم في التلصص على عادات الجيران السرّية، معتبرين الفعلة شيئا طبيعيا، فمن منظورهم من غير اللائق أن تعيش في حيّ دونما أن تكون على إطلاع بما يحصل خلف حيطانه»[28]**والوساخة التي تعم الشوارع والتي يزداد حضورها يوميا**، **التكلم فيالوقت نفسه**«وإن حدث وتحدّث الناس فهم يتحدثون دفعة واحدة، ولايفهم أحد شيئا مما يقولون»[29]، وهنا تتطابق المدّونة المختارة مع الخطاب الروائي الاستعماري تحديدا، الذي سبق ورصد سلوك الجزائريين، لكن الاختلاف بين الخطابين يكمن في طبيعة الهدف، فإذا رأت أقلام الخطاب الروائي الاستعماري أن احتلال فِرنسا للجزائر هو إخراجها من حالة التخلف التي تؤسسها مثل الصور المذكورة سابقا، صانعة منها أمة متطورة حضاريا حسب مزاعمها«لايُقر الخطاب الاستعماري بالمساواة، ولايؤمن بالشراكة الإنسانية في القيم العامة، وتقوم فرضيته على ثنائية ضدية، فالمستعمِر ممثل للخير، وسمو المقام والرفعة الأخلاقية والتقدم، أما المستعَمر فمستودع للشر والانحطاط والدونية والتخلف»[30]، فإن هدف سعيد خطيبي تأكيد على أن التطور هو ذاك الذي يصنعه الجزائري في تجاوزه لتلك الصور السلبية

---

[27]معذبو الأرض، ص 24

[28]المصدر نفسه ، ص 23، 24

[29]المصدر نفسه، ص 22

[30]عبد الله إبراهيم، التخيل التاريخي، السرد والامبراطورية والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص 243

المتراكمة، فتتشكّل بذلك رؤية إيجابية لأناه، لينجح بالموازاة من استرجاع همم أجيال سابقة وأخرى صاعدة فيتّم التواصل مع مفهوم الوطن والوطنية، بل والسعي لتفعيل هذا المفهوم واقعيا.

وهنا يؤكد سعيد خطيبي أن بقاء السلوكيات السلبية السابقة،**بقاء للطبيعة اللصيقةبالمستعمَر السابقوضمان لاستمراريتها**، إنها**تغييبالرغبة** في تغيير وضع قام فترة الاستعمار ومايزال كذلك حتى بعد نيل الاستقلال بسنوات، فالمانع الحقيقي في عدم تطوير الأنا لأناها ليس المستعمِر المادي فقط، إنه كذلك **المستعمر الداخلي** الذي تولّد من نفسية هذه الأنا واستوطنها، لتوصف وفقا لذلك بالأنا المتأخرة بدلا من الأنا الأولى المتقدمة«ففي محو الاستعمار، يجب إذن تغيير الوضع الاستعماري تغييرا كاملا، ويمكن أن يقوم تعريفه إذا أردنا أن نصفه وصفا دقيقا في هذه العبارة المعروفة: الأواخر سيصبحون الأوائل، إن محو الاستعمار تحقيق لهذه الجملة، ولذلك فإن كل محو للاستعمار هو من ناحية الوصف نجاح»[31]، واللاتقدمللأنا يخدم المستعمِر السابق خدمة متواصلة، فهو ضمان لاستمرارية المركزية الغربية المطلقة، بل وتغييب لذلك الصراع الذي قام بين طرفي النزاع في فترة من فترات التاريخ، ولروح المقاومة التي اقترن بها المستعمَر السابق كما كان حال الجزائري«إن أولئك الرجال والنساء العزّل الذين يقاتلون الاستعمار الفرنسي في الجزائر بقبضات أيديهم، إنما يقاتلون جميعا في سبيل الثقافة القومية الجزائرية»[32]، وهنا ملمح المثقف الأصلاني في دفاعه عن وجود أمته الثقافي، حين ينتقد ماهو سلبي فيها، ليساعدها على تجاوزها في سبيل الوصول لما هو إيجابي، وعلى إحياء روح المقاومة التي تبنتها وبقوة سابقا.

خاتمة:

قرأت رواية سعيد خطيبي"أربعون عاما في انتظار إيزابيل" حقيقة مجتمعات مابعد الاستعمار، وتحديدا في علاقتها مع ما صنفته بالآخر، المتمثل خاصة في هذا الغربي المنتمي لبلد المستعمِر السابق، مظهرة تموقعه فيها بشكل مضمر حينا وصريح في أغلب الأحيان.

لقد حافظت هذه المجتمعات وفقا لقراءة سعيد خطيبي لها على ثنائية الأنا والآخر وغرستها ثقافة مطلقة في أجيال متعاقبة، متبعة نهج البلدان الاستعمارية، التي لم

---

[31] معذبو الأرض، ص 27

[32] المصدر نفسه، ص 256

تكتف بتلقين أبنائها هذه الثقافة، بل لقنتها وبإحكام شديد لمجتمعات تلك الأراضي التي احتلتها، لتمنح لها ممارسة مفهومها وتداعياته دون نقاش أو رادع.

فكما كشف الخطاب الروائي العربيمابعد الاستعمار تداعيات هذه الثنائية والشرقي في رحلته من الجنوب للشمال، قابله خطاب سعيد خطيبي هذا حين كشف هو الآخر هذه التداعيات ليس على الشرقي ولكن على هذا الغربي الذي رغب في التماهي المطلق مع الطرف الأوّل، ومن هذه التداعيات وأهمها **الدخول في متاهة اللاهوية**، فالشرقي في الخطاب الروائي العربي وفي رحلته الاختيارية أو الإجبارية لفضاء الشمال الغربي، يعيش مفارقة صعبة **الصورة الأولى لهذه المفارقة** وهو **خضوعه بالقوة لطبيعة ثقافة هذا الفضاء** ، فيتماهى معها متناسيا ثقافته الأصلانية ومن ثمة هويته الأصلانية بالموازاة، وتتجلى **الصورة الثانية من هذه المفارقة** في رفض هذا الشرقي التواصل مع ثقافة المختلف للمحافظة على تلك التي نشأ علها وتبناها، ليلجأ إلى **ممارسة ثقافة الانعزال**فيعيشها بل ويُعايش أبناءه فيها ضامنا حسب اعتقاده حماية مطلقة لهويته الأصلانية، ليكشف هذا الخطاب الزعم الكاذب للبلدان المستعمِرة سابقا بأنها تعترف بالاختلاف الثقافي وتُشجعه وهو ماليس قائما بالفعل.

ويدخل الغربي في المجتمعات الشرقية ما بعد الاستعمار متاهة اللاهوية هذه، في رحلةتكون في الأغلب اختيارية وليست إجبارية كما وصفنا رحلة الشرقي من قبل، فنجده -وحسب المدوّنة المختارة- راغبا في التماهي مع الشرقي وثقافته، رافضا أن يعامل كآخر، وقيام هذا التماهي وفقا لخطاب سعيد خطيبي الروائي ليس لقوة حضارة هذا الشرقي، ولكن لوله الغربي بنضال الشرقي المستميت في سبيل تحرر وطنه من المستعمِر، فيسعى بذلك لتبني ثقافة هذا الشرقي وممارسها فعليا، لكنه يعرف رفضا قاطعا لتحوله هذا من أنا غربي إلى أنا أصلاني، وهنا يكشف خطيبيادعاءاختلاف المجتمعات الشرقية المزعوم عن المجتمعات الغربية، فهو حسبهادعاء كاذب. فالغربي مهما حاول تغيير أناه إلى تلك الأنا الأصلانية متشبعا بثقافتها، مدافعا عن وجودها الحضاري، إلا أنه في النهاية لن يعرف إلا مصير الغريب ، ولن تكون معاملته مهما طال به الزمن بين ظهراني هذه المجتمعات الشرقية إلا كذلك.

والغربي بين هذا التماهي وهذا الرفض يضيّع هويته الأصلانية ويدخل متاهة اللاهوية دخولا اضطراريا، فيعرف بذلك اغترابا نفسيا مستديما مثلما عرفه الشرقي، وبالتالي لا اختلاف مطلقا بين الأنا الاستعمارية السابقة والأنا الجديدة، فكلاهما يعكسان الروح الاستعلائية الاستعمارية وإن اختلفت الأوضاع والسبل لذلك.